مقام الانسان بين الاحياء

هل تزعزع مذهب دارون في تسلسله ؟
ما المذاهب التي تزاحمهُ وما مكانها ؟

« نظرية دارون حديث خرافة ! القول بان اصل الانسان من القردة حديث خرافة لا اساس لهُ ! الانسان كان انساناً منذ بدء خليقته وعلى مرّ العصور ! »

تقتطف هذه العبارات الثلاث من نبذة نشرتها جريدة عربية لها مقام عالٍ بين الادباء نقلاً عن جريدة اميركية وقد نقلتها عنها مجلة عربية يتداولها الشبان . ولا يبعد ان تكون صحف عربية اخرى قد نقلت هذه الفقرة عن الصحيفتين المذكورتين لانها منسوبة الى عالمٍ من اكبر علماء البالينتولوجيا في هذا العصر هو الدكتور هنري فيرفيلد ازبورن رئيس متحف التاريخ الطبيعي الاميركي بنيويورك ورئيس مجمع تقدم العلوم الاميركي لسنة ١٩٢٩

لا يدهشنا ان تنشر جريدة اميركية يومية نبذة علمية فيها كثير من الخطإ الاساسي او تتوّجها بالفاظ تضلّل القارىء لان اكثر الصحف الاميركية يسعد الى الناوين التي تلفت النظر فترتكب في ذلك ضدّ العلم جريمة اقلُّ ما يقال فيها انها تشوّش المذاهب العلمية تشويشاً بعيد الاثر في عقول القراء . والسبب في كتابة مثل هذه العناوين لا يتعذر تبيّنهُ . فاميركا بلاد اكثرية شعبها جاهلة بحقائق العلوم البيولوجية ونتائجها . ومحاكمة سكوبس الذي درّس مذهب النشوء باحدى مدارس تنسي لا تزال ترنُّ اصداؤها في الاذهان . واذن فعنوانٌ يقول بان مذهب دارون في تسلسل الانسان حديث خرافة يضرب في نفوس الجماهير على وتر حسّاس ويكفل اقبالهم على قراءة الجريدة المذكورة . على ان للعلم امانةً في اعناقنا لا يكفي في تأديتها القول اننا نقلنا عن صحيفة يومية اميركية او اوربية . وخصوصاً اذا كان النقل من غير تعليق ولو بنشر الآراء المناقضة للرأي المنقول ومكانة اصحابها

***

بعد هذا البيان الوجيز نتقدم الى النظر في مذهب دارون في تسلسل الانسان والموازنة بينهُ وبين المذهبين الآخرين اللذين ينازعانهِ السيادة في اندية العلم البيولوجي لنرى هل

ما يذهب اليه الدكتور أُزبورن او غيرهُ في ارتقاء الانسان وتسلسله ارسخ قدماً في العلم واجمع للادلة البيولوجية والجيولوجية وغيرها من مذهب داروين

لا يزال جمهور كبير من الناس يعتقد ان الانسان متسلسل من القرد بانياً اعتقادهُ على ما يلتقطهُ من افواه بعض المتعلمين الذين تشتمل بضاعتهم البيولوجية على فقرات قرأوها هنا اوهناك في صحف او كتب لا تتوخى التحقيق العلمي في ما تنشره على الناس قدر ما تتوخى الوضوح في التعبير او التصوير على حساب الدقة . فمن كتاب عنوانهُ «من القرد الى الانسان» الى اعلان عنهُ انهُ «يرسم لك صورة واضحة لمراتب نشوء الانسان من القردة الى مكانهِ في اعلى سلم النشوء» الى خطب عامة يستعمل فيها الخطباء حتى العلماء منهم الفاظاً «اقاربنا وابناء عمنا» عند الاشارة الى القردة ، امور ترسخ في عقول غير العلماء من قرّاء الصحف ان الانسان متسلسل من القرد

على ان الانسان يخص طائفة من الحيوانات تمتاز بوجه عام ببطيقة من الشعر تعلو بشرتها وبمقدرتها على تغذية صغارها الذين يولدون احياء من الثدي ، وهذه الطائفة تعرف « بالثدويات » والانسان احد انواعها فهو يتصف اذاً بصفاتها العامة ويمتُّ بصلة القربى الى حدٍّ ما الى كل نوعٍ من انواعها

والثدويات (عدا الثدويات الزحافية كآكلة النمل) متسلسلة من حيوان شجري يشبه القرقدان ظهر في اوائل عصر الايوسين او في آخر العصر الكريتاسي اي من نحو ستين مليون سنة . فيصح اذاً ان يقال ان كل الحيوانات الثدوية لها اصل عام . واذن فالقول بانها اقارب لا يحتاج الى اقامة دليل . على ان العالم ومحبَّ العلم يريدان ان يعرفا مدى هذه القرابة بين الانسان والحيوانات الثدوية المختلفة . وفي الاجابة عن هذه المسألة وتحديد مدى القرابة يجب ان نجمع بين نتائج الباحثين في علم الآثار المتحجرة وأقوال علماء الحيوان الذين يعنون بدرس خصائص الحيوانات بوجهٍ عام ومكان كلٍّ منها في الطبيعة بوجهٍ خاص . ولدى الاطلاع على مباحث هؤلاء نعرف انهم قد تتبعوا ارتقاء اشهر الحيوانات الثدوية من نشأتها الى حالتها الحاضرة — وتسهيلاً لضبط ذلك قسموا الثدويات الى بابات افراد كل بابةٍ منها تمتاز بصفات متماثلة تختلف كثيراً او قليلاً عن صفات الافراد في نوعٍ آخر . ووضعوا الانسان في بابة اطلقوا عليها اسم « الرئيسيات » *primates* ووضعوا معهُ اكلة الهوام (الصياد) والدور الافريقي ولور الهند الشرقية والقردة فهو اقرب صلة الى هذه الحيوانات منهُ الى غيرها من الثدويات في بابتها المختلفة

فاذا عرفنا ذلك وجب ان نكتفي به فليس ثمة حاجة الى التكلم عن اقاربنا وابناء عمنا

وما الى ذلك . لان قولاً كهذا لا يبرّره الواقع ثم هو مضلّل للقارىء

***

وهناك خطأ آخر متصل بمقام الانسان بين الاحياء ينشره قوم يحومون على أطراف مملكة العلم من غير ان يمسّوها وهو قولهم بان المباحث البيولوجية والعلمية الجديدة قد نقضت مذهب داروين من اساسه . ولا حاجة بنا الى التبسط في تعليل هذا الموقف لان خطأه يتضح حالاً من النظر في مكانة مذهب داروين العلمية وضعف المذهبين الجديدين اللذين يختلفان عنه ، فيتضح للقارىء حينئذٍ ان مذهب داروين في تسلسل الانسان هو اليوم اثبت منه في الماضي لان الادلة الجديدة التي كشف عنها في مختلف العلوم التي تتصل بهذا البحث تؤيده متفرقة ومجتمعة

لما عرض داروين للادلة المجتمعة لديه عن تسلسل الانسان استنتج منها ، نتيجة لا مفرّ منها ، خلاصتها انه قلما نرتاب في ان الانسان نزع من الاصل الذي نشأت منه قردة العالم القديم وانه اذا نظر الى تسلسله وجب ان نضعه مع قسم الكاتارين[1]

ثم عطف على ذلك بقوله «فيحق لنا أن نستنتج ان جزءاً خاصاً من نسيلة شبيهة بالانسان ولدت الانسان» (اي نشأ منها الانسان) فاذا عبرنا عن فكر داروين بكلامنا قلنا ان الانسان نشأ من حيوان شبيه بالقردة الشبيهة بالانسان . ولكن داروين لم يعين الحيوان الذي نشأ منه الانسان لانه لم يستطع ذلك . هذه الخلاصة هي آخر شكل ظهرت به آراء داروين . ولكن يجب ان يتضح للقارىء أن داروين لم يعنَ قط ان الانسان نشأ من حيوان شبيه بالانسان كائن الآن . وما عناه داروين هو ان الانسان والحيوانات الشبيهة بالانسان الكائنة الآن متسلسلة من اصل واحد كان شبيهاً بالحيوانات الانثروبيدية[2] في صفاته . فالانسان متسلسل من حيوان شبيه بالانسان قديم جداً قبل ان ظهرت في هذا الحيوان الصفات الخاصة التي تتصف بها الحيوانات الانثروبيدية الحديثة . هذه هي الخلاصة التي يصل اليها الباحث بعد درس مذهب داروين والادلة التي يستند اليها في كتابه « تسلسل الانسان » . وقد ثبت رأيه امام محبات الباحثين لاستناده الى طائفة من الادلة ثبتت صحتها حتى ليجب ان يكون جريئاً جداً من يقدم على الشك في الاساس الذي بني عليه

***

اما المذهبان اللذان ينازعان مذهب داروين السيادة في تسلسل الانسان فقد ظهرا حديثاً

(١) اي الحيوانات ضيقة الانف وهي صفة كان يوصف بها قردة العالم القديم بقابلها بلاتيرين اي واسعة الانف وهي صفة قردة العالم الجديد (٢) اي شبيهة بالانسان

وعني بهما بعض العلماء وخصوصاً في اميركا لمكانة صاحبيهما العلمية وهما الدكتور ود جونز احد علماء التشريح والدكتور هنري فيرفيلد اوزبورن العالم بالآثار المتحجرة المشهور

اما مذهب الدكتور ود جونس فليس جديداً . نشأ وتداولهُ الكتّاب قليلاً في اميركا في العقد التاسع من القرن الماضي . ثم مات موتاً طبيعيًّا لقلة الاهتمام به . وكان الدكتور اليوت سمث من اساتيذ مدرسة قصر العيني الطبية سابقاً قد عني بدرس حيوان من «الرئيسيات» يدعى لمور الهند الشرقية *Tarsier* وتعيين مقامهِ الخاص بين الرئيسيات . والمرجَّح ان الدكتور ود جونز تبسط في مذهبهِ بان الانسان متسلسل من لمور الهند الشرقية بانياً كثيراً من آرائهِ على حقائق تشريحية كشف عنها الدكتور اليوت سمث

وخلاصة مذهب الدكتور جونز ان قردة العالم القديم والعالم الجديد والقردة الشبيهة بالانسان والانسان نفسهُ نشأت من اصل عام في اوقات مختلفة متباقية وانها كلها تفرعت من الاصل القديم لا بعضها من البعض الآخر . وان الاصل حينما تفرّع منهُ الانسان كان « حيواناً متوسطاً بين لمور الهند الشرقية والانسان » وهذا المذهب يعرف عند الانثربولوجيين « بالمذهب التارسي » وحجة صاحبهِ الكبرى في تأييدهِ ان الانسان يشترك مع لمور الهند الشرقية في صفات اساسية اولية لا يتصف بها غيرهما (والمقصود بالصفة الاساسية الاولية صفة كان يتصف بها الاصل الذي تفرع منهُ الانسان) ويظهر ان احد اغراض الاستاذ جونز من مذهبهِ هذا ادبي محض كما يتضح لك من قولهِ «— اذا حسب الانسان نفسهُ نوعاً قديماً جدًّا ، يمتاز الآن كما امتاز في الماضي ، بصفاتهِ العقلية ، واذا حسب ان الرئيسيات العائشة الآن ليست سوى فروع منحطة من الاصل القديم ، تمكنا من ان نرى شيئاً جديداً في اتجاه الانسانية الادبي »

اما وقد قرَّر الاستاذ جونز ان الانسان فرع خاص انفصل على حدة من اصل عام هو لمور الهند الشرقية فعليهِ ان يواجه مشكلات ومسائل علمية متعددة . كيف يعلّل وجوه الشبه الكثيرة بين جسم الانسان واجسام القردة الشبيهة بالانسان التي تدل على صلة نسب متينة . فهو يقول « يجب ان ندرك في البدء ان في القردة الكبيرة تبدو اقرب الصلات التركيبية الى الانسان . هذه حقيقة أدركت من زمن بعيد ولا تزال حقيقة لا تنقض » على انهُ لا يرى ان وجوه الشبه هذه بين تركيب الجسمين ارث وراثة الانسان والقردة الانثربويدية من اصل عام بل يدعي انها صفات نشأت في كليهما على حدة . ولكن الدكتور جونز في نظر السر ارثر كيث يقلّل كثيراً من شأن وجوه الشبه الدقيقة . فهو يحاول ان يقلل مثلاً من شأن الشبه العظيم بين دماغ الانسان ودماغ القرد الشبيه بالانسان .

كأنهُ لا يعتري انهُ يتعذّر علينا تعليل نشوء دماغ الانسان الكبير من دماغ التارسيوس الصغير دون ان يمرَّ في اثناء نشوئهِ في مرتبة يمثلها دماغ القرد الشبيه بالانسان

كلُّ عظمة وكلُّ عضلة في جسم الانسان قد مرّت في ادوار متعددة بعيدة الأثر في النشوء قبلما اصبحت صالحة في مجموعها لاقامة المتصبة. والعظام والعضلات نفسها قد تطورت ايضاً في اجسام القردة الشبيهة بالانسان مثل تطوّرها في جسم الانسان ولكن الى مدى اقل . على ان الدكتور جوتز يرفض هذا التعليل ويقول ان كلاً من الانسان والقردة الشبيهة به بلغت مرتبة القامة المتصبة على حدة وان كل فريق منهما مرَّ في المراتب والتغيرات الآلية المختلفة على حدة حذو القذة بالقذة !

وزد على ذلك انهُ لا يذكر شيئاً عن وجوه الشبه بين دم الانسان ودم القردة الشبيهة به كالتماثل في تفاعلها الكياوي واستعداد الجسمين للاصابة بالامراض ذاتها . بل انهُ يذهب الى أن تماثل التفاعل الكياوي في الدمين لا يدلُّ على « قرابة الدم » . وقد اخذ الاطباء حديثاً يقسمون البشر الى اقسام خاصة بحسب تركيب الدم . والحيوانات الوحدة التي تشبه احد هذه الاقسام البشرية هي القردة الشبيهة بالانسان . يضاف الى ذلك الشبه العقلي بين الفريقين وتشابه الجماجم وتركيب عظامها كما توغلنا في القدم على ما هو ثابت من الجماجم القديمة التي عثر عليها . وصحة كل مذهب جديد تتوقف الى حدّ كبير على سهولة تعليله للحقائق التي يؤيد البحث صحتها . والظاهر ان مذهب الدكتور جوتز غير كافٍ لذلك ولا يصحّ بوجهٍ ما ان يحسب مزاحماً لمذهب دارون في تسلسل الانسان

***

ولمذهب الدكتور ازبورن سنة ١٩٢٦ لما زار صحراء منغوليا في اواسط آسيا. قال: «هناك تأثرت بأثر البيئة الجديدة وهي صحراء تكاد تكون قاحلة ، فرَّ في فكري خاطر كالبرق مؤداه ان الانسان المتغلغل في القدم نشأ هنا وان الحيوانات الشبيهة بالانسان لا تستطيع المعيشة في هذه البيئة ». وقد اخذ هذا الخاطر يقوى بجمع الأدلة والبراهين حتى صار في مرتبة يقين علمي فأعلنهُ في شهر ابريل سنة ١٩٢٧ امام الجمعية الفلسفية الأميركية في الاحتفال الذي اقامتهُ لانقضاء قرنين على انشائها فقال حينئذٍ انهُ قد تخلّى عن مذهب الحيوانات الانثروبوية واقترح مذهباً جديداً مؤداهُ ان للانسان سلالة طويلة من أسلاف دما واحدهم « انسان الفجر » وأن المذهب الأول يثبت قرابة الانسان للقردة الشبيهة بالانسان ولكنهُ لا يثبت تسلسلهُ منها »

فهو يعتقد ان كلاً من الانسان والقرد متسلسل على حدة من حيوان لا يستطاع

وصفهُ بأنهُ انسان او قرد شبيهٌ بالانسان . فمن الازمنة المتغلغلة في جوف التاريخ يقول الاستاذ ازبورن ان الانسان كان انساناً والقرد الشبيه بالانسان قرداً شبيهاً بالانسان وان الاثنين لم يلتقيا . واذاً فالانسان متسلسل من حيوان ادنى من القردة الشبيهة بالانسان في سلم النشوء . ولكن يظهر ان الاستاذ ازبورن لم يدرِ ان مذهبهُ يفضي الى هذا الاستنتاج

مساكين هم اساطين الرجعية الدينية والعامية في اميركا وغيرها الذين ظنوا انهم يجدون في مذهب « انسان الفجر » كما دعي رأي ازبورن ، مخرجاً من مذهب دارون اذ لا بدَّ ان يجيء يوم يكتشفون فيهِ ان ربيبهم هذا (اي الحيوان الذي نشأ منهُ الانسان بحسب مذهب ازبورن) الذي يحوطونهُ بكل انواع العناية ووسائل الشهرة والاذاعة ليس الاَّ حيواناً عادياً مذنباً متنكراً في زي « انسان الفجر » !

لا لسد وحدَّ الفائدة العلمية مهما بالغ بالقول ان الحيوانات الانثربويدية المعاصرة ليست الحيوانات التي تسلسل منها الانسان ، وأقوى دليل على ذلك شدة اختصاصها بمستلزمات المعيشة الشجرية . ان الحيوان الانثربويدي الذي نشأ منهُ الانسان ، لم يكن كما يريد البعض حيواناً بلغ من الرقي والاختصاص ما بلغتهُ الحيوانات الانثربويدية المعاصرة . فاذا بدا للاستاذ ازبورن ان يناقض المذهب القائل بان الانسان متسلسل «من حيوان مختص بالمعيشة الشجرية كالقرد الشبيه بالانسان» فانما يناقض مذهباً لا وجود لهُ الاَّ في مخيلتهِ . لا ينكر احدٌ ان الانسان ما زال يتسلسل من الانسان من عصر البليوسين الى الآن . ولكن حين يرتدُّ الاستاذ ازبورن بالتسلسل الانساني الى عصر الاوليغوسين العالي لا يجاريهِ العلماء في ذلك لانهم لا يعرفون دليلاً واحداً من الادلة العلمية يؤيد هذا الرأي . وما يعرفونهُ الآن من حقائق النشوء في الثدويات عامة والرئيسيات خاصة يؤكد ان قولهُ هذا غير مرجَّح . ومع ذلك اذا صحَّ قولهُ هذا فانهُ لا يضعف على الاطلاق مذهب تسلسل الانسان من حيوان شبيه بالانسان

والظاهر ان الاستاذ ازبورن يرى ما يراهُ الاستاذ ودجوز الى حدٍّ ما من ان وجوه الشبه بين الانسان والقرد الشبيه به سببها وراثة قديمة جداً من اصل عام متغلغل في جوف التاريخ او ارتداد نوع القرد الى نوع الانسان بعد تباعدهما . وهذا قول يستغرب صدورهُ من ازبورن بعد ما جعل اساس تخليهِ عن مذهب دارون شدة اختصاص القردة الانثربويدية وبُعدها عن صفات الانسان حتى ليصعب عندهُ ان يكون حيوانٌ مثلها اصلاً للانسان . فكيف يدعي ان الاختلاف بين النوعين يمنع القول بتسلسلهما من اصل واحد ثم يقول ان وجوه الشبه بينهما ترجع الى ارتداد نوع القرد الى نوع الانسان

ومن غرائب الهفوات التي وقع فيها قوله ان مؤيدي مذهب دارون يرون ان الانسان مرَّ في طور طويل كان فيه شجريًّا brachiating[1] والواقع ان الحيوان الشبيه بالانسان الذي نشأ منهُ الشكل الانساني الاول كان ينتقل من غصن الى غصن بالتعلق بعضديه لانهُ كان حيواناً يعيش معيشة شجرية اولاً ثم انتقل الى الارض ليعيش عليها . والانسان كانسان لم يكن شجريًّا قط . وهو بعد تطور معيشته الارضية مدى مليون سنة ونشوء اعضائه طبقاً لمقتضياتها لا يزال يشمل في تركيبه آثاراً ناطقة بانهُ متسلسل من حيوان شجري . وقد ظلت الحيوانات الانثروبويدية على ما هي لانها ظلت تعيش في الاشجار ولم تنزل الى الارض

يقول الاستاذ ازبورن — واذا كان الانسان متسلسلاً من حيوان شجري فلماذا لا نراهُ محتفظاً بالابهام القصيرة التي تمتاز بها الحيوانات الشجرية . والردّ على هذا الاعتراض ان ابهام الانسان طالت تلبيةً لدواعي معيشته الجديدة على الارض . فيد الانسان هي بوجه عام اكثر اختصاصاً من يد القرد الشجري . فالغورلا مثلاً ، وهي ارقى القردة الشبيهة بالانسان لا تزال تملك اربع ايدٍ (لانها تستطيع ان تستعمل رجليها كيدين) ولكن الانسان قد زاد اختصاص اطرافه فهو يملك يدين للقبض ورجلين للمشي . ولما كانت يد الغورلا اقل اختصاصاً من يد الانسان فتكوينها ناقص بالنظر الى وظيفة يد الانسان وعليه فالابهام في يد الغورلا وهي الجزء الذي يرتبط اكبر ارتباط بالقبض قصيرة وغير تامة التكوين كما هي في يد الانسان . والادلة التي تستخرج من علمي الاجنة والتشريح المقابلة تبين بياناً لا محل للشك فيه ان ابهام الانسان انما هي ابهام القردة الشبيهة بالانسان ولكنها ارتقت وزاد اختصاصها

ومن الادلة التي يحبها الاستاذ ازبورن عماد مذهبه الاختلاف بين الانسان والقردة الشبيهة به في النسبة بين اعضاء كلٍّ منهما . فذراعا الانسان ويداه اذا قيست بخنذيه اقصر من ذراعي القرد الشبيه بالانسان ويديه اذا قيست برجليه . وهذا دليل مردود بمقتضيات التطور نفسها التي يؤمن بها الاستاذ ازبورن . ان حيواناً يكيف نفسهُ لمعيشته الارضية لا بدَّ ان يقع في اعضائه ولسبتها بعضها الى بعض تغير يختلف عن التغير الذي يحصل في حيوان مختص اختصاصاً شديداً بالمعيشة الشجرية . بل العجيب ان لا يكون اختلاف بينها ! ومباحث علم الاجنة والتشريح المقابلة تؤيد هذا التعليل

الحق ان الادلة التي يستند اليها الاستاذ ازبورن في تأييد مذهبه لم تقنع حتى الآن عالماً من العلماء الذين يؤبه لقولهم في هذا الموضوع على ما نعلم

---

(١) اي يتنقل من غصن الى آخر بالتعلق باغصان الاشجار بعضديه وقد وضع هذه النقطة السر ارثر كيث